الشعر المصري في مائة عام :

علي الليثي

للاستاذ محمد سيد كيلاني

١٨٢٢ — ١٨٩٦

— ٣ —

وللليثي قصيدة نظمها في حادثة قمر النيل المشهورة واستقالة وزارة رياض باشا . وهي لا تقل عن تلك التي تحدثنا عنها في صدق العاطفة وقوة الاحساس . ومطلعها :

العيد واف وحسن الحال منتظم ... والأمن عم وكل الناس قد نعموا
وانجاب عن مصر ليل مد غيهبه ... تنميق واش بنصح صبحه حكم
يا طالما قد سمي الساعون وارتقبوا ... شق العصا وزفير الغيظ محتدم
لولا الأناة ولولا الحزم لابتهجت ... نفوسهم وعرى التدبير تنفصم
كل له غرض فيما ينعقه ... والألمعي يرى ما ضمه الكلم
ماذا عليهم إذا ما سيد كرما ... أغضى وأرضى رعاياه وسرهم

هكذا بدأ الليثي قصيدته ، فهو في هذه الأبيات فرح مبتهج لحلول الأمن والطمأنينة بعد فترة من الخوف والهلع سادت بين المصريين قبيل حادثة قمر النيل ، ويشير الى دسائس العنصر الجركسي وبخاصة عثمان رفقي باشا وسعيهم في الإيقاع بين الخديو والعرابيين . وينوه بحلم الخديو وعفوه . وهو في هذا غير متكلف ولا متصنع بل إنه ليرسل القول من أعماق فؤاده .

ومنها :

الصفح والعفو أولى ما يزول به ... داعي التنافر والأحوال تلتئم
هذا فتى الحلم موفي الزمان بدا ... من حلمه ما أنذت عن حمله الأمم
فهل رأيت مليكا في شبيبته ... قد سهل الصعب حتى كاد يتهم
سمح الخليقة رحب الصدر ذو أدب ... لم يعمل السيف فيما يعمل القلم
حرصاً على العدل لم يعجل بمبادرة ... عند الحفيظة حيث الغير ينتقم

وليس في هذه الأبيات من المعاني سوى مدح الخديو بالحلم وقد أطنب في هذا كما ترى ولعل السر في ذلك هو الفرح الذي طغى على المصريين حين تخلصوا من وزارة رياض وظفروا بوزارة شريف التي عملت على ارضاء الشعب بانتهاج خطة الاصلاح . فلا عجب إذا اندفع الليثي يشيد بحلم الخديو ويطيل في الإشادة .

ومنها :

لما رأى جنده من شبهة عرضت ... قد عارضوا واتقوا بالحزم واحتزموا
يوم العروبة إذ شوال منتصف ... راموا انتصافا وكاد السلم ينحسم

الدين وزهدا في متاع الحياة الدنيا . فهل هؤلاء يرضون تحت وطأة الفقر والحاجة ؟ وقد توهم الشيوعيون أن في مقدورهم تقويض سلطان الدين لأنهم ظنوا أنه يستمد سلطانه من فقر الجماعات وجوعها ووقوعها تحت سلطان الفادة المتجبرين يسومونهم سوء العذاب ، وفاتهم أن الدين يستمد سلطانه من أكرم ما يوحيه العقل وأشرف ما يبعث من عواطف في النفس .

والانسان الذي يكون كل همه السعي في طلب القوت وكل تفكيره منصرفا لاستنباط الحيل للحصول عليه ، لا يجد وقتا يساعده على التأمل في الدين وتعاليمه أو التفكر في مصيره . بل إن الإنسان إذا اشتد به الظلم والفقر ، كثيرا ما يؤدي به هذا إلى الكفر والخروج على طاعة الدين ومخالفة أوامره .

هذه نظرة عجلى في أركان المذهب الشيوعي نستطيع أن نستخلص منها أن الشيوعيين قد خيل لهم وهمهم أن الانسان كائن لا يهمه إلا امتلاء بطنه ، وأن همه الأكبر لا يخرج عن هذا العمل فهو لا يسعى للبحث عن المثل العليا ولا عن الغذاء الروحي الذي يغذي النفوس والتي هي دائما في تعطش إليه ، ما دام قد وجد ما يشبع كرشه

(أسيوط)

عبد الموجود عبد الحافظ

أجاب سؤلهم وهو الجـــدير به ... فقابلوه بحسن الحمد واحترموا
وقبلوا ســـدة سادت بأخصه ... في موقف تتقيه العرب والعجم
وعاضهم من رياض غرس أنعمه ... وهيئة في نظام الملك قد خدموا

وفي هذه الأبيات ترى الشاعر يقف في صفوف العرابيين فيصف ثورتهم وهجومهم على قصر النيل بأنها شبهة لهم ويدافع عنهم بقوله « راموا انتصافا » . فهو يقرر بأنهم كانوا مظلومين مغبونين، وأنهم قاموا لإزالة ما هو واقع بهم من الجور والطغيان ولا شك في ان الشاعر قد أغضب الخديو في هـذه الابيات التي كشف فيها عن موقفه من الحركة العرابية . وتتجلى عاطفة الليثي بصورة أوضح في هذه الأبيات :

وهب لجندك ما قد كان وارعهم ... بعين أروع سيا طبعه الكرم
هب أنهم أخطأوا لم يستخف بهم ... خوف به ثورة الأحشاء تضطرم
فكان ما كان من أمر مغبتـه ... والحمـــد لله لم يلمم بها ألم
رفقاً وعطفاً وبالصفح الجميل أعد ... عادات بر لهم في عودها عشم
فهم لملكك أنصار وهم عدد ... عند الوغى ومثار النقع مرتكم
وهم سيوفك في يوم يفر به ... قلب الجبان وموج الحرب يلتطم
وهم دروع رعاياك الذين لهم ... في وصف معناك ما تعنو له الأمم
حاشاك مولاي أن تصغي لذي غرض ... لديه سيان من يحيي وينعدم

لن تجد شاعراً واحداً دافع عن العرابيين في هذا الموقف غير الليثي . وهو يظهر في هذه الأبيات في ثوب الوطني المخلص الذي يغيض حبا البلاد وغيرة على وطنه. فهو يخاطب الخديو محاولا التهوين من شأن تلك الحادثة الخطيرة ، مجتهداً في التقليل من قيمتها . ويذكره في نفس الوقت بأن الجيش هو درعه الوحيد الذي يلجأ إليه عند الشدائد والخطوب . فلا بد من العطف على رجال الجيش والاحسان إليهم وعدم الالتفات إلى الوشايات التي كان يسعى الجراكسة بها في حق المصريين . وهذه من غير شك وقفة مشرفة من وقفات الليثي انفرد بها دون سواه من شعراء عصره .

* * *

وقد مدح الليثي الخديو توفيق في أغسطس من عام ١٨٨٣م بقصيدة مطلعها :

ساعد الجـــد والمراد تيسر ... وصفاء الزمان كالصبح أسفر
ثم بنا نفتش حدائق أنس ... روحها بالذي يسرك نور

نتهز فرصة فليـــل الأماني ... بعد يأس قد استنـــار وأقمر

وفي هذه الأبيات يبدو الشاعر فرحا مسروراً ، متغنياً بالصفاء الذي جاء بعد الكدر، والرخاء الذي أعقب الضيق ، وابتاق نور الأماني بعد انقشاع ظلمات اليأس . وذلك على أثر تحسن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية عقيب الاحتلال . وقد تغنى شعراء كثيرون بما أصاب البلاد من الرخاء . والليثي أحـــد هؤلاء الذين نسوا الاستقلال المفقود وألهاهم الصفاء والرخاء عن تحكم البريطانيين في مرافق البلاد . ثم قال :

شنف السمع واطرب الجمع وانثر ... من بديع المقال حبات جوهر
وانعت الحالة التي أنت فيهـا ... ناعم البـــال بالسرور مؤزر
في زمان حلا كرشف رضاب ... من حبيب بغير وعـــد تيسر
أو مـــدام أدارها بدر تم ... من رأى شمسها فلا يتكدر
فالتواني حليفه العجز فانشط ... للتهاني عساك بالأنس تظفر

نشأ الليثي في مجالس اللهو والسرور ، وطبع على حياة المرح والطرب بين المغنين والمغنيات . فلذلك تراه يكثر في شعره من ذكر العبارات والصور التي يستمدها من هذا الجو المرح الطروب — كتشنيف السمع ، واطراب الجمع ، ورشف رضاب الحبيب ، وشرب المدام ، وذكر النديم ، وأخي السمر ومجالس الأنس ووقت الصفاء ، إلى غير ذلك مما توحيه إليه بيئته التي عاش فيها . وقد أثرت هذه البيئة في شعره وخياله وأفكاره ومعانيه ، وطبعته بطابع خاص انظر إليه حين يقول :

حديثـه بين أرباب النهى سمر ... يعزوه المجد منقول ومعقول

أو حين يقول :

فاسمح فديتك فالأوقات آنسة ... والحظ أقبـل بالاسعاد طالعه

أو حين يقول :

بها تزف الأماني في مواكبها ... لكل راج ويرعاها أخو السمر
والأنس دار بأقداح السرور وقد ... حيي الرعية واستملى أخا النظر

تجده يذكر « السمر » و « الأنس » و « اقداح السرور » وهذا من غير شك وليد الوسط الذي درج فيه

وكانت مجالس الأنس والسرور تعقد في الحدائق بين الأزهار والرياحين والجداول والطيور والأشجار . وقد أثرت هذه المناظر في خيال الليثي فأكثر من التغني بها في شعره . ومثال ذلك قوله:

والدهر وافى بما كنا نؤمله ... والروض غنت كما تهوى سواجعه
طافت جداوله بالدوح ساقية ... كأنه طفلها تحنو فترضعه
تشدو على عودها الورقا كأن لها ... إلفا يردد شكواه تراجعه
وبلبل الأيك أبدى لحنه طربا ... فرنح الغصن حتى قام راكعه
وللنسيم بهاتيك الربا أرب ... إن مر يحلو ونفح الطيب ضائعه

فهذه الصور التى جاء بها هنا قد أخذها من الواقع الذى يحيط به فى حدائقه الخاصة وبساتينه ، وفى حدائق اسماعيل ومتنزهاته ورياضه ، وفى حدائق الامراء والكبراء الذين كان يغشى دورهم .

وقد أعجبنى من هذه الأبيات قوله :

طافت جداوله بالدوح ساقية ... كأنه طفلها تحنو فترضعه

فتشبيه الجدول حين يسقى الدوح بأم ترضع طفلها يجعل صورة شعرية جميلة تجعلنا نعطف على تلك الأم وذلك الطفل .

وللشاعر قصيدة فى رثاء عبد الله فكرى مطلعها :

تذم المنايا وهى فى النقد أعدل ... غداة انتقت مولى به الفضل يكمل
تخطت أناسا من كثير تعدهم ... وغالت وحيداً من قليل يحصل
ونحن بنى الدنيا نباين فعلها ... فلا تنتقى حراً عليه يعول
كأن المنايا فى انتقاها خبيرة ... بكسب النفوس العاليات تعجل

وليس فى الأبيات معنى جديد ، بل هى بعض المعانى القديمة التى سبق إليها منذ قرون ، لم يحسن أداءها ، ولم يوفق إلى صياغتها فى أسلوب جيد ولا فى عبارة قوية . وقد شاع بين شعراء هذا الدور افتتاح قصائد الرثاء بمثل هذه الديباجة التى يذمون فيها المنايا ويتحدثون عن خبرتها فى انتقاء الأخيار والأفاضل

ثم قال :

فتم لها من منتقى الدر حلية ... بها العالم العلوى أنسا يهلل
وتم نظام العقد وازينت به ... نحور بدور الحور وهو مفصل
وكل بعبد الله فكرى مهم ... ينافس فيه غيره حيث ينزل
فما شغلته عن شهود مليكه ... ومن كان عند الله لا يتحول
دعاه بشير القرب أن جد للقا ... لتحظى بما قد كنت ترجو وتأمل
فأهداه طيب الروح وارتاح للبقا ... ومن يطلب الأعلى له النفس يبذل
وحل مقاما لا يحيط بشكله ... سوى مهتد يرمى الكمال ويعدل

فى هذه الأبيات انتقل الليثى عن الدنيا إلى الآخرة وشاهد عبد الله فكرى وقد التفت حوله الحور العين وتنافسن فى القرب منه والظفر بوصاله . وهذا عبث وهراء . وفضلا عن ذلك عباراته جاءت فى منتهى الضعف والسقم . وما أثقل قوله « نحور بدور الحور » . ومن مظاهر افلاسه اللغوى قوله « فتم لها من منتقى الدر حلية » وقوله فى البيت الثانى « وتم نظام العقد » فكرر الفعل « تم » فى بيتين متتاليين . وكذلك قوله « انتقت مولى » و « فلا تنتقى » و « كأن المنايا فى انتقاها » و « فتم لها من منتقى » فكأن اللغة وقد نضب معينها وضاعت مترادفاتها فلم يجد أمامه غير فعل واحد هو « انتقى » وقد اتخذ هذه الابيات مقدمة مهد بها لانتقاله إلى وصف مناقب عبد الله فكرى التى استحق بها هذا النعيم المقيم فقال :

غراس مساعيه جناه تنعما ... ومن ماء رحماه يعل ويتهلل
لقد كان ذا دين قويم وعفة ... بها ساد أمثالا لديه تمثلوا
لقد كان ذا بر عطوفا مهذبا ... سجاياه صفو القطر بل هى أمثل
رقيق حواشى الطبع سهل محبب ... إلى كل قلب حيث كان مبجل
كريم السجايا لا الدنايا تشينه ... عظيم المزايا إذ يقول ويفعل
شمائله لو قسمت فى زمانها ... على الناس لازدانوا بها وتجملوا

وهذه كلها من المعانى القافهة التى يحوم حولها الشعراء فى مثل هذا المقام ، ولا تحتاج إلى القول بأنها متكلفة مصطنعة . ولن تجد الشاعر مهما بلغ به من الضعف مشقة فى سرد مثل هذه النعوت . والذين رثوا عبد الله فكرى اشتركوا فى هذه المعانى فمنهم من أوجز ومنهم من أسهب . ومثال ذلك قول حفنى ناصف :

باللطف واللين والدين الرصين له ... مقام سبق عليه قط ما غلبا
ما روح النفس بالدنيا مفاكهة ... إلا قضى من فروض الدين ما وجبا
قضى الحياة ونصر الدين دبدنه ... لا ينثنى رهباً عنه ولا رغبا
وكان مغرى بفعل الخير يحسب فى ... إسدائه أنه قد أدرك الأربا

وقد أطال الليثى على غير جدوى ، وأتى بالمعنى القليل فى لفظ كثير . فالمعنى الذى فى قوله « رقيق حواشى الطبع ... » هو عينه الذى فى قوله « كريم السجايا ... » وقول الليثى :

لقد كان ذا دين قويم وعفة ... بها ساد أمثالا لديه تمثلوا

قريب جداً من قول حفنى ناصف :

يا للطف واللين والدين الرصين له ... مقام سبق عليه قط ما غلبا

وعبارة حفنى ناصف وهى «مقام سبق عليه قط ما غلبا .. » أقوى بكثير من عبارة الليثى « بها ساد أمثالا لديه تمثلوا . . »

ثم انتقل الليثى بعد ذلك إلى الإشادة بمكانة عبد الله فى عالم الأدب فقال :

فقدنا محيـــاه ولـكن بيننا ... بديع مزاياه بها نتمثـــل
فكم أدب غض وحسن ترسـل ... لآياته عبـــد الحميـد يذلل
فما الفاضل القاضى إذا جاش صدره ... وأبدع فى معنى عليه يفضـل
ومهما صبا الصابى وابدى بدائعاً ... فإن ضجيج الحور منه لأكل
وما ابن هلال حيثما حـل بدره ... وأطلق من الفـكر إلا مكبـل

هكذا أمضى الليثى فى غير تحفظ ولا احتراس يزرى بعبد الحميد الـكاتب ، والقاضى الفاضل ، وأبى اسحاق الصابىء ، وأبى هلال الصابىء وهو من أجهل الناس بهؤلاء الـكتاب . ولولا ضيق فى خياله وضعف فى تفكيره لما جاء بهذا اللغو الذى لا خير فيه وأفضل منه قول مصطفى نجيب .

أقت من الآداب نهجاً مسدداً ... قويماً فـكل فى الرثاء أديب

قلنا إن الليثى أزرى ببعض القدماء ؛ أما حفنى ناصف فقد كان أعقل بكثير من الليثى ، فلم يحط من شأن القدماء ، إنما حط من شأن معاصريه . والفـكرتان تقومان على السلبية أى نفى وجود الأمثال والأشبـاه . ولم يزد الليثى على هذه الأبيات فاكتفى بالسلبية . أما حفنى ناصف فـكان كما سترى فيما بعد سلبياً وإيجابياً إلى حد بعيد . ولم يصدق لا فى سلبيته ولا فى إيجابيته .

وقال :

مدى من فقدناه عزيز منـاله ... وآثاره فينـا تضوع وتنقل
فلو أنصفتنا أنفس علقت بنا ... لحامت على نعش به البحر يحمل
يا لهف الخلان حيث فقدنه ... ويا لهف الأقران ماذا تحملوا
ويا لهف الآداب بعد عميدها ... ويا لهف الـكتاب إن عن معضل
ويا لهف الإيناس من بعد نأيه ... ويا لهف الجلاس إن غص محفل
فويا لهف مثلى وهو أولى تلهفاً ... على فقد من كنا به نتجمل

هكذا ندب الليثى عبد الله فـكرى وناح لموته ورثى لحال هؤلاء الذين فجعوا به من الخلان والأقران كما رثى لحال الآداب والـكتاب والإيناس والجلاس . ولا يظهر على هذه الأبيات شعور داخلى مبعثه الأسى والحزن ، بل ظهر عليها التـكلف والتصنع . وكرر الفعل « فقد » فقال « مدى من فقدناه . » و « حيث فقدته » و « على فقد . » وهذا يدل كما ذكرنا سابقاً على خلو جعبته من المترادفات .

وقال :

خليلى الذى قد كان أدرى بخلتى ... وبدر أعنى الحادثات ويحمل

والليثى فى هذا البيت يقول غير الواقع . ذلك لأنه كان أقرب الناس إلى الخديوين اسماعيل وتوفيق . وكانت داره كعبة يحج إليها أصحاب الحاجات . فهو الذى درأ الحادثات وحملها وجمع بين « خليل » و « خله » و « أدرى » و « يدرأ » وهذا مما يوجب الثقل على اللسان والأذن . ثم قال :

نأى عن محبيه وأقسم جازما ... بأن لا يؤوب الدهر ما طاب منزل
وأقسم كل من أخلاه موقناً ... بأنا إلى لقياه شوقا سنرحـل
كلانا بصدق بر عنـــد يمينه ... وبالرغم ما قلنا وقال المـكمل

وهذا لغو وعبث . يقول بأن عبد الله فـكرى أقسم ألا يعود ما صفا له العيش فى الجنة . وأقسم خلانه على اللحاق به شوقا إليه . ويقول إن كليهما صادق فى يمينه . وهذا هراء لا طائل وراءه .

وقال :

ولولا أمين المـكرمات الذى إلى ... مخايله سر الأبوة ينقـــل
فتى المجد والعلياء والصدق والحيا ... وأوفى أمين يرتجى ويؤمـل
يشم شـذا المرحوم منه ويجتلى ... بغرته الحسن الذى يتهلل
لذبنـا أسى مما عرانا من النوى ... ونحنا كما ناح الهديل المبتل

وفى هذه الأبيات انتقل الشاعر من البكاء على عبد الله فـكرى الى التحدث عن ابنه . ولم يوفق إلى معنى جديد ولا إلى صورة لطيفة بل هوى إلى الحضيض . وقوله « يشم شذا المرحوم » من تعابير الدهماء . وقال :

عزاء عزاء أيها الشهم واحتسب ... وأيقن بأن الله ما شـاء يفعل
تجلد ولا تبد التضجر والأسى ... فانك ممن للمعـالى يؤهل
فمثلك من يسلى سواه إذا جنت ... عليه الليـالى واعتراه التنول
ومثلك من يرعى شئون مراعه ... ويسعى لمأمن قلبه يتململ